اتجاهات التفسير الموضوعي للقرآن الكريم
وحاجتنا إليه في الفترة المعاصرة

إعداد الدكتور

يـونـس عـمر مـلال

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية – كلية الدعوة وأصول الدين

جامعة أم القرى – مكة المكرمة ـ السعودية

yomellal@uqu.edu.sa

اتجاهات التفسير الموضوعي للقرآن الكريم وحاجتنا إليه في الفترة المعاصرة

يونس عمر ملال

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية – كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى – مكة المكرمة - السعودية

البريد الاليكتروني : ***yomellal@uqu.edu.sa***

الملخص:

يعود الاهتمام بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم إلى حقبة الستينيات منذ كتب فيه السيد الكومي ثم السيد محمد باقر الصدر رحمهما الله، وقد تتالت الكتابات على هذا النهج خلال الأربعين سنة التالية بما وسع قضاياه وطور منهجه، وأثرى اتجاهاته. فكتب فيه كثير من الباحثين والعلماء والدعاة والأساتذة الكبار، من أمثال عبد الستار فتح الله سعيد، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد الغزالي، ومصطفى مسلم وغيرهم.. ومن خلال كتاباتهم التي قارب تراكمها نصف قرن من الزمان، بات ممكنا تقويم هذه الجهود والاطلاع على الاتجاهات المختلفة التي خاضت هذا المعترك، وكذا معرفة النتائج والثمرات التي تمخضت عن هذه المسيرة العلمية التجديدية المباركة في مجال التفسير وعلوم القرآن. وهذه الدراسة تصب في منحى الكشف عن اتجاهات التعريف والتصور للتفسير الموضوعي التي تراوحت بين الجمع والترجيح وبين المأثور والرأي، وكذا بيان فوائده، من مثل: قدرته على حجاج المخالفين ورد شبهاتهم، واتساق منهجه مع طبيعة القرآن الهدائية، وقدرته على بناء التصورات الكلية وتقديم البدائل الثقافية، والإسهام في بناء المعرفة والانفتاح على العلوم، وإظهار هيمنه القرآن على معارف البشر، وكشف أوجه جديدة لإعجاز القرآن، وغير ذلك مما هو مفصل في ثنايا هذا البحث .

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم - اتجاهات - التفسير الموضوعي - المعاصرة – الفترة.

Trends of the objective interpretation of the Holy Quran and our need for it in the contemporary period

Younes Omar Malal

Dawa and Islamic Culture Department - College of Dawa and Fundamentals of Religion - Umm Al-Qura University - Makkah Al-Mukarramah - Saudi Arabia

Email: yomellal@uqu.edu.sa

Abstract :

Attention to the objective interpretation of the Noble Qur'an dates back to the sixties period since Mr. Al-Koumi wrote, then Mr. Muhammad Baqir Al-Sadr, may God have mercy on them, writings followed this approach during the next forty years as he expanded his issues, developed his method, and enriched his trends.

So many researchers, scholars, preachers and senior professors wrote in it, such as Abdul Sattar Fathallah Saeed, Muhammad Abdullah Draz, Muhammad Al-Ghazali, Mustafa Muslim and others. Through their writings whose accumulation approached half a century ago, it is possible to evaluate these efforts and see trends the various battles that have been fought, as well as knowledge of the results and fruits that have resulted from this blessed and innovative scientific march in the field of interpretation and the sciences of the Qur'an.

This study aims to reveal the trends of definition and perception of the objective interpretation that ranged between addition and weighting between the adage and opinion, as well as explaining its benefits, such as: its ability to argue offenders and return their

suspicions, the consistency of its methodology with the guiding nature of the Qur'an, and its ability to build holistic perceptions and provide cultural alternatives And contribute to building knowledge and openness to science, and to demonstrate the dominance of the Qur'an on human knowledge, and to uncover new aspects of the Qur'an's miracles, and other things detailed in the folds of this research.

Keywords: Need, Quran, Directions, Objective Interpretation, Contemporary, Period

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة:

بدأ الاهتمام بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم في الستينيات منذ كتب فيه السيد الكومي رحمه الله والسيد محمد باقر الصدر، وقد تتالت الكتابات على هذا النهج خلال الأربعين سنة التالية بما وسع قضاياه وطور منهجه، وأثرى اتجاهاته.

فكتب فيه كثير من الباحثين والعلماء والدعاة والأساتذة الكبار، كتب فيه عبد الستار فتح الله سعيد، ومحمد عبد الله دراز، ومحمد الغزالي، ومصطفى مسلم وغيرهم.. ومن خلال كتاباتهم التي قارب تراكمها نصف قرن من الزمان، بات ممكنا تقويم هذه الجهود والاطلاع على الاتجاهات المختلفة التي خاضت هذا المعترك، وكذا معرفة النتائج والثمرات التي تمخضت عن هذه المسيرة العلمية التجديدية المباركة في مجال التفسير وعلوم القرآن.

وهذا البحث يصب في اتجاه الكشف عن الاتجاهات والفوائد هذه، وقد قسمته إلى ثلاثة مباحث وفي كل مبحث مطالب متناسبة مع موضوعه، وخلصت إلى نتائج في خاتمة البحث، وكان التقسيم كالآتي:

المبحث الأول: تناولت فيه اتجاهات التفسير الموضوعي في الفترة المعاصرة، في خمسة مطالب: المطلب الأول بينت فيه اتجاه التعريف الذي غلب عليه المنحى الواقعي، والمطلب الثاني: بينت فيه الاتجاه الذي غلب عليه المنحى المأثور، والمطلب الثالث: بينت فيه الاتجاه التوفيقي الذي حاول الجمع بين أنواع التفسير في نوع واحد متفرع، والمطلب الرابع بينت فيه الاتجاه المعاكس الذي أقر بالفصل بين أنواع التفسير الموضوعي، وفي المطلب الخامس ناقشت ورجحت هذا الأخير إذ لكل نوع أسسه ومنهجيته.

المبحث الثاني: وهو مبحث وسيط بين المبحثين الأول والأخير، تناولت فيه طبيعة التفسير الموضوعي وقدرته على الحجاج في مطلبين: المطلب الأول: تناولت فيه طبيعة التفسير الموضوعي المتناغمة مع طبيعة القرآن الكريم من حيث هو كتاب هداية يتسم بالخاتمية، والمطلب الثاني: تناولت فيه قدرة التفسير الموضوعي على الحجاج والرد على الشبهات المعاصرة.

المبحث الثالث: تناولت فيه قدرة التفسير الموضوعي على البناء، بناء الرؤية والثقافة والفكر والعلوم وتوجيه العمل، وذلك من خلال ستة مطالب: المطلب الأول: إعادة بناء المناخ الثقافي والرؤية الكلية، المطلب الثاني: الانفتاح على الاختصاصات العلمية المختلفة، المطلب الثالث: القدرة على الإجابة عن الاستفهامات المتجددة، المطلب الرابع: إظهار هيمنة القرآن على المعارف والعلوم البشرية، المطلب الخامس: أثره في إظهار أوجه جديدة لإعجاز القرآن، المطلب السادس: تفعيل قضايا في علوم القرآن وتصحيح بعض القواعد العلمية، ثم ختمت هذه الدراسة بخاتمة، وقائمة للمراجع، وفهرس للموضوعات.

المبحث الأول: اتجاهات التفسير الموضوعي في الفترة المعاصرة

بعد أن شاع اصطلاح التفسير الموضوعي بين الباحثين المعاصرين في التفسير والدراسات القرآنية، وأوردوا له تعريفات عدة تختلف فيما بينها من حيث الشرح والإسهاب أو الاختصار والإحكام، بل والاختلاف جار بين الباحثين في تصورهم للتفسير الموضوعي نفسه، وفيما يدخل تحت مسماه أو لا يدخل، وفي اتجاهاتهم وما يركزون عليه. صار بإمكاننا أن نستعرض أهم اتجاهات هذه التعاريف ونصنفها لإدراك حقيقة الفروق العلمية والمنهجية فيما بينها.

المطلب الأول : اتجاه التعريف الواقعي

وأهم من يمثله هو السيد باقر الصدر ـ رحمه الله ـ حيث يقول: "الاتجاه التوحيدي أو الموضوعي في التفسير..لا يتناول تفسير القرآن آية فآية بالطريقة التي يمارسها التفسير التجزيئي، بل يحاول القيام بالدراسة القرآنية لموضوع من موضوعات الحياة العقائدية أو الاجتماعية أو الكونية فيبين ويبحث ويدرس، مثلا عقيدة التوحيد في القرآن أو يبحث عن النبوة في القرآن أو عن المذهب الاقتصادي في القرآن أو عن سنن التاريخ في القرآن أو عن السموات والأرض في القرآن وهكذا.. ويستهدف التفسير التوحيدي الموضوعي من القيام بهذه الدراسات تحديد موقف نظري للقرآن الكريم وبالتالي للرسالة الإسلامية من ذلك الموضوع من موضوعات الحياة أو الكون." [1]

١المدرسة القرآنية، السيد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان ، ص١٢-١٣ .

وهذا الاتجاه في التعريف يركز على مسألتين أساسيتين:

الأولى منهجية: تُفاصل بين التفسير الموضوعي والتفسير التحليلي أو الموضعي في أسلوب التعامل مع الخطاب القرآني، وتتمثل في عدم تفسير القرآن آية فآية وتعتمد بدل ذلك جمع آيات الموضوع الواحد، مع تنبيه باقر الصدر إلى أن هذه المرحلة في التفسير هي مرحلة متقدمة مبنية على التفسير التحليلي وتتكامل معه فلا تضاده ولكنها لا تتوقف عنده.

الثانية موضوعية: وهي ضرورة الخروج بموقف قرآني من قضية واقعية معروضة عليه ولا يفرق بين أن تكون هذه القضية كلية أو جزئية، عقدية، أخلاقية أو تشريعية، كونية أو إنسانية..

كما يلاحظ أن باقر الصدر لا يشير من قريب أو من بعيد إلى التفسير الموضوعي المتعلق بالسورة القرآنية أو إلى الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، مما يجعلنا نقرر أنه إذا أطلق هذا الاصطلاح فلا يعني به تفسير السورة القرآنية تفسيرا موضوعيا، ويلاحظ أنه أيضا لم يتطرق إلى دراسة المفردة القرآنية لا بوصفها نوعا خاصا من التفسير الموضوعي ولا بوصفها مدخلا وجزءا من دراسة الموضوع، ولعل ذلك راجع إلى كونه من أوائل الذين كتبوا في التنظير لهذا المنهج، فضلا عن أن أصل كلامه في التفسير الموضوعي مجموعة محاضرات ألقاها، وليس بحثا ألفه.

المطلب الثاني : اتجاه التعريف النصي أو المأثور

لعل خير من يمثل هذا الاتجاه ويعبر عنه هو عبد الستار فتح الله سعيد، إذ يرى أن التفسير الموضوعي:" هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية عن طريق جمع آياتها المتفرقة والنظر فيها على هيئة مخصوصة بشروط مخصوصة، لبيان معناها واستخراج عناصرها وربطها برباط جامع" ويرى في التفسير الموضوعي باعتباره فنا مدوّنا بأنه:" الذي تجمع

فيه قضايا القرآن الكريم وتفسر تفسيرا علميا على أساس الموضوع، وتدون في بحث مفرد، أو كتاب جامع على نمط موسوعات التفسير التحليلي، بحيث يرجع الباحث إلى الموضوع الذي يريده، ويعلم موقف القرآن منه في يسر وسهولة."[1]

وهو بهذا التعريف يفتح بابا لسؤال كبير عن تصورنا للتفسير الموضوعي، فهل هو إجابات القرآن الكريم عن القضايا والمعضلات والاستفهامات الواقعية التي لا تنتهي؟ وبالتالي فإن وجوده على شكل موسوعات جامعة يكون غير ممكن لتناهي الموسوعات وعدم تناهي قضايا الحياة، أم هو الإحاطة بأصول الموضوعات المباشرة التي يحويها القرآن الكريم في مجالات العقيدة والتشريع والأخلاق والقصص وعلوم الكون وغير ذلك..؟ وهو الأظهر فيما يقصده عبد الستار من التفسير الموضوعي، وحينئذ يمكن ظهور موسوعة بهذا الشكل.

ولكننا في هذا الاتجاه نكون حيال مدخل معين على الاستجابة لتحديات العصر ورسم الموقف القرآني ولا تكون هذه التفاسير هي ذلك الموقف أو الإجابة بصفة مباشرة، طالما أن استصحاب الواقع وصياغة الأسئلة من سياق التجربة الواقعية ليس عنصرا أساسيا في عملية التفسير، وهذا ما يظهر من قوله فتح الله سعيد:" بحيث يرجع الباحث إلى الموضوع الذي يريده ويعلم موقف القرآن منه في يسر وسهولة".

كما يتضح من التعريف أنه لا يَعُدُّ تفسير السورة القرآنية والكشف عن وحدة موضوعها - إن وجد - من التفسير الموضوعي، بل يعبر عن ذلك بصريح العبارة حين يقول:" وقد عدَّ بعض العلماء في هذا النوع ما يسمى (بالوحدة الموضوعية) في القرآن كله، أو في سورة منه، بأن يجعل المفسر للسورة الكريمة هدفا ينتزعه من ملاحظة معانيها، ثم ينزل الآيات المتعددة في السورة لتحقيق هذا الهدف، وأرى – والله أعلم – أن هذا الضرب من الدراسات لا يدخل

١ المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد،دار التوزيع والنشر الإسلامية ، الطبعة الثانية ،١٤١١هـ،١٩٩١ ص٢٠-٢١.

في التفسير الموضوعي، لأن موضوعه وهو هدف السورة المتعددة الآيات أمر التماسي، اجتهادي، تختلف فيه الأنظار فكيف تصنف الآيات في السورة على هدف مختلف على تحديده؟ وكيف يقوم التفسير على الاحتمال؟ مع أن الأصل في التفسير الموضوعي أن يقوم على أساس النصوص ذاتها أو معانيها المتحققة."[1]

والجديد في هذا التعريف أنه لا يعتبر الرابطة الموضوعية بمعناها الخاص فحسب في التفسير الموضوعي، بل يعتبر كذلك اتحاد الغاية، لذا فهو يقسم التفسير الموضوعي إلى عام لا يربط بين موضوعاته إلا وحدة الغاية فيدخل في ذلك مثلا تفاسير آيات الأحكام وإن اختلفت موضوعاتها بين العبادات والمعاملات والحدود والجنايات.. لأن غايتها دراسة الأحكام الشرعية دون غيرها. وخاص يعتبر فيه الموضوع المتحد غاية ومعنى، ويمثل له بموضوع اليهود في ضوء القرآن على سبيل المثال[2]، وقد سميت هذا الاتجاه بالمأثور لأنه يرى أن التفسير الموضوعي هو نوع من تفسير القرآن بالقرآن، كما يرتكز تفسيره على معاينة النصوص وتركيب موضوعات موحدة انطلاقا من النص القرآني وحده دون النظر إلى واقع الحال، ثم يأتي دور تحقيق المناطات الواقعية في خطوة تالية، بمعنى أنه لا يرى أن تدخل عناصر التجربة البشرية في عملية التفسير بل تراعى فقط في تطبيقه، وهذا خلافا للتعريف الأول الذي يعتبر فهم الموضوع القرآني وتفسيره في جو من استحضار عناصر التجربة البشرية مسألة منهجية لازمة في عملية محاورة القرآن وتفسيره موضوعيا، دون أن تُحمل عليه أفكار مسبقة أو يقاد التفسير لتبرير الأفكار المسبقة.

❁❁❁❁❁

١ المرجع السابق، ص ٢٤-٢٥.
٢ المرجع نفسه، ص ٢٤ـ٢٥.

المطلب الثالث: الاتجاه التوفيقي في الجمع بين التعاريف

ومعناه تعريف مختلف أنواع التفسير الموضوعي في عبارات واحدة أو متقاربة، وقد أورد الدكتور مصطفى مسلم، تعاريف لم يعز أكثرها إلى أصحابها نذكر منها:

- هو بيان ما يتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية.
- هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية.
- هو بيان موضوع ما من خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة.

ومال إلى تعريف مفاده أنه: "علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر." [1]

ورجّح التعريف الأخير مبررا ذلك بخلوه عن التكرار وإشارته إلى النوعين الرئيسيين من التفسير الموضوعي ، يعني بذلك التفسير الذي يتخذ السورة وحدة له، والآخر الذي يتخذ الموضوع أساسا له.

وهو بذلك قد اختيار، التعريف الجامع بين نوعي التفسير الموضوعي المذكورين في عبارات واحدة، فضلا عن أنه أشار إلى تفسير المفردة القرآنية في قوله في التعريف الثاني الذي سبق عرضه " المتعلقة بالموضوع الواحد لفظا أو حكما"، ولا يكون الموضوع موحدا لفظا إلا إذا كان مفردة أو عبارة واحدة مكررة في القرآن.

وقد علق أحد الباحثين على التعريف الذي اختاره مصطفى مسلم بقوله: "هو تعريف مجمل قد لا يلحظ فيه الشمولية في منهج التفسير الموضوعي،

---

١ مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م ، ص١٦.

فالموضوع القرآني في السورة شيء والوحدة الموضوعية فيها شيء آخر فيمكن تناول موضوع الربا في سورة البقرة مثلا لكن لا يمكن القول إن الوحدة الموضوعية في سورة البقرة هي الربا" [1]وهذا يقودنا إلى التساؤل الآتي: هل أنواع التفسير الموضوعي مترابطة والاختلافات بينها بسيطة أو لفظية بحيث يمكن جمعها في تعريف واحد أم هي مستقلة عن بعضها في الأساس والمنهج والاختلاف بينها هو اختلاف حقيقي لا لفظي؟

للإجابة عن هذا السؤل لا بد من معرفة الأساس أو الأسس التي بنيت عليها أنواع التفسير الموضوعي، وهذا ما سأناقشه ضمن عرض الاتجاه المقابل لهذا الأخير.

المطلب الرابع:الاتجاه التفريقي في الفصل بين التعاريف

يمثله عدد من الباحثين، وأمثل له برؤية عبد الجليل عبد الرحيم الذي يعرف التفسير الموضوعي لموضوعات القرآن الكريم بالقول: المنهج الذي يتخذه المفسر سبيلا للكشف عن مراد الله من خلال الموضوعات التي يطرحها والقضايا التي يعالجها، توضيحا لهداية القرآن وتجلية لوجوه إعجازه، أو هو العلم الذي يتخذ من موضوعات القرآن الظاهرة أساسا في الكشف عن منهج القرآن وأسلوبه في معالجته لها، متخذا من القواعد والشروط المرعية في التفسير سلما للوصول إلى هدي الكتاب وجلال شأنه." [2]وقد تعقب أحد الباحثين بعض عبارات التعريف كاعتبار التفسير الموضوعي تارة علما وتارة منهجا، وكالتعبير

١ التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، خليل زياد الدغامين، دار عمار، الأردن، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢١.

٢ التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، سلسلة التراث والوحي في الإسلام، الأردن ج١، ط١، ١٩٩١م، ص٣٤.

بـ: الموضوعات الظاهرة للقرآن، مما يشي بوجود موضوعات باطنة أو غامضة. [1]

وإذا تجاوزنا بعض الألفاظ التي ليس للوقوف عندها كبير أهمية في السياق الذي نحن فيه، مثل اعتبار التفسير الموضوعي علما أو منهجا، لأنه علم بالنظر إلى ما يحققه من استنباط للهدايات القرآنية والعلم بها، أي من باب إطلاق العلم على المعلوم، وهو منهج بالنظر لما يتميز به من أسلوب فريد في مجال الدرس القرآني.

أقول إذا تجاوزنا الناحية اللفظية فالتعريف لا غبار عليه إلا أنه لا يشمل الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية وهو ما أفرد له الدكتور عبد الجليل تعريفا خاصا فقال: "الوحدة الموضوعية للسورة القرآنية هو التفسير الذي يتوجه فيه المفسر إلى الكشف عن الموضوع الذي تعالجه السورة في ضوء معطيات آياتها المحكمة النسج والارتباط وأسلوبها المتميز وخصائصها المعجزة، بلوغا إلى مقاصدها الهدائية." [2]وقد تعقبه أحد الباحثين المؤيدين لجمع التعريف في عبارات واحدة بأن وضع تعريفين مستقلين لبيان الوحدة الموضوعية في السورة والتفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية "يوحي بشيء من التغاير بينهما وهو ليس واقعا إلا في مستوى الدراسة ونطاقها لأن الموضوع هو القاسم المشترك بين التعريفين." [3]

حاول هذا الباحث أن يوضح بأن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية وللموضوع القرآني يقومان على أساس واحد، وأن الخلاف بين الباحثين قائم في مفهومه، ومن ثم في أقسامه، ليخلص إلى القول بأن سبب الخلاف هو عدم التفات بعض الباحثين إلى الوحدة الموضوعية في السورة لاشتمالها في الظاهر على موضوعات عديدة، كما غلب على ظن آخرين أن الجمع لآيات القرآن في

١ التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، مرجع سابق، ص ٢١.
٢ التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، ص٣٦.
٣ التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، ص٢٢.

موضوع ما بقطع النظر عن منهج الدراسة وطبيعته وأهدافه ومقاصده هو تفسير موضوعي، ثم يقرر هذا الباحث بأن منهجية البحث في التفسير الموضوعي تنبثق فكرتها من مفهوم الوحدة الموضوعية في القرآن أو في سورة واحدة من سوره، فالكشف عن وحدة الموضوع الذي تفرقت عناصره في القرآن وإبراز تلك العناصر وبيان الصلات التي تربط بينها.. مثل تناول الموضوع على نطاق سورة واحدة من سور القرآن، وبيان الوحدة الجامعة بين آيات ذلك الموضوع، ذلك أن كل سورة تضمنت نظاما وروحا عاما يسري في كيانها والكشف عن ذلك النظام جزء لا يتجزء من المنهج الموضوعي.[1]

المطلب الخامس: مناقشة الاتجاهات والترجيح بينها

لقد نقلت هذا التعليق بطوله لمعرفة مدى الخلط الذي يقع فيه بعض الباحثين في المفاهيم، فظاهر من التعليق السابق أن الباحث لا يرى فرقا بين تفسير السورة موضوعيا وتفسير موضوع قرآني لأن ما يجمع بينهما هو الوحدة الموضوعية سواء في السورة أو في القرآن فهما لا يختلفان إلا في مستوى الدراسة ونطاقها الذي يضيق أو يتسع كما زعم.

والأمر أكثر من مجرد ما ذكره من اختلاف، وليس الفارق الوحيد بين النوعين هو دراسة الموضوع في نطاق السورة أو في نطاق القرآن كله، بل على الأساس العلمي الذي يقوم عليه كل نوع فنحن إزاء مفاهيم دقيقة يختلف بعضها عن بعض وهي:

١ أنظر: المرجع السابق، ص٢٥ باختصار.

1- الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية: التي تعتمد على علم المناسبات وهو علم اختلف العلماء في شأنه فأثبته قوم ونفاه آخرون[1]، والقول بوجود وحدة موضوعية للسورة يعني وجود موضوع واحد - أساسي على الأقل - ووجود مقدمة وخاتمة للسورة، ووجود هدف ومحور يتعين على المفسر إدراكهما على مستوى السورة وهذا ما يعنيه الباحثون حين يتحدثون عن التفسير الموضوعي للسورة القرآنية وهو قائم على الالتماس والاجتهاد في معرفة أو اكتشاف نظام السورة الذي جعل منها سورة مستقلة متميزة عن غيرها من سور القرآن.

2- دراسة موضوع بعينه من خلال سورة قرآنية: وهذا شيء غير وحدة موضوع السورة ولم يقل أحد بصراحة بأنه من التفسير الموضوعي، ولربما يكون إلى التفسير التحليلي أقرب، فماذا تفيدنا موضوعيا مثلا دراسة موضوع أهل الكتاب في سورة البقرة إذا كان لهم ذكر في سور أخرى كسورة آل عمران والمائدة والنساء وغيرها..، ولماذا الاقتصار على سورة واحدة إذا كان الموضوع مذكورا في مواضع أخرى من القرآن الكريم؟ إن هذا الاقتصار لا يمكننا من أخذ تصور كلي لحيثيات الموضوع من أجل بيان موقف القرآن في التعامل مع أهل الكتاب مثلا، الأمر الذي يتطلب دراسة الموضوع من خلال كافة الآيات القرآنية التي تناولته فإفادته موضعية لا موضوعية.

3- الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: ذكرها بعض الباحثين ويعنون بها ما يعنونه بالوحدة الموضوعية للسورة القرآنية، أي أن القرآن يمكن اعتباره نصا واحدا مقدمته هي سورة الفاتحة وما بعدها تفصيل لما اشتملت عليه وهو بمثابة

١ ممن شككوا في علم المناسبات الإمام العز بن عبد السلام والإمام الشوكاني، وممن اشتهروا به وتحمسوا له الإمام أبو بكر النيسابوري والإمام برهان الدين البقاعي، ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م ،ص٣٧.

الفصول والأبواب.[1]وهذه مسألة اجتهادية أيضا، تقوم على علم المناسبات بين سور القرآن والقول بتوقيف ترتيبها وهي أيضا مسألة للعلماء فيها كلام طويل.

4- دراسة موضوع بعينه من خلال القرآن الكريم: وبيان الترابط بين عناصره والخروج برؤية قرآنية كلية بخصوصه، وهو التفسير الموضوعي للموضوعات القرآنية، وهذا النوع لا يقوم على أساس علم المناسبات بل يقوم على أساس تفسير القرآن بالقرآن وهو أمر عليه إجماع المفسرين بل هو أحسن طرق التفسير عندهم[2] وهو قائم على اليقين بأن القرآن يفسر بعضه بعضا وليس فيه تضارب ولا اختلاف، من هنا أمكن جمع موضوع واحد مختلفة مواضعه في سور القرآن متكاملة عناصره في كل القرآن، كموضوع بني إسرائيل في القرآن، وطبيعة الإنسان ودوره من خلال آيات القرآن، والتدرج في التشريع من خلال آيات تحريم الربا والخمر في القرآن وهكذا..

وعلى هذا الأساس فالتفريق بين نوعي التفسير الموضوعي في التعريف أرجح وأدق وأولى من وجهة نظري، ويعضد ما ذهبت إليه أن معظم أعلام التفسير الموضوعي فصلوا بينهما ومنهم الشيخ محمد الغزالي ـ رحمه الله ـ الذي عرف باهتمامه بالتفسير الموضوعي وتوظيفه في الإصلاح والدعوة إلى الله، حيث يقول: "يطلق التفسير الموضوعي على نوعين جديدين من خدمة الكتاب العزيز، أولهما تتبع قضية ما في القرآن كله، وشرحها على ضوء الوحي النازل خلال ربع قرن تقريبا.. والآخر النظر المتغلغل في السورة الواحدة لمعرفة المحور الذي تدور عليه والخيوط الخفية التي تجعل أولها تمهيدا لآخرها،

---

١ ينظر، الوحدة الموضوعية في القرآن ، محمد محمود حجازي، مكتبة دار التفسير،الزقازيق، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٤م ، ص١٥ـ١٦.

٢ ينظر: مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد عبد الحليم بن تيمية، طبعة الرياض الرياض ، ج١٣، ص٣٦٣.

وآخرها تصديقا لأولها أو بتعبير سريع تكوين صورة عاجلة لملامح السورة كلها."[1]

وبعض الباحثين يضم إلى هذين النوعين نوعا ثالث من التفسير الموضوعي هو دراسة ألفاظ القرآن ومفرداته كون البحث عن مفردات القرآن واستعمالاتها في مواضع الآيات والسور المختلفة بعد استقرائها عمل شبيه بمنهج التفسير الموضوعي وفيه ما لا يخفى من الفوائد، كما أن معرفة معنى الموضوعات المركبة يتوقف في كثير من الأحيان على معرفة معاني الألفاظ فضلا عن أن للقرآن استخدامه الخاص للفظ الذي يصبح فيه شبيها باصطلاح قرآني، أو إطلاق في عرف القرآن وقول علماء اللغة: كل ما ذكر في القرآن من كذا فمعناه كذا.. كما فعل ابن فارس وغيره هو من هذا القبيل.[2]

لكن أكثر الباحثين في مجال التفسير الموضوعي لا يذكرون إلا نوعين منه، ويمكن أن نستنتج أنهم يعتبرون الدراسة الموضوعية للفظ مدخلا لدراسة موضوعات القرآن لأن مختلف عناصرها تبنى عليها فتناوُل اللفظ جزء من تناول الموضوع.

ويأخذ الموضوع أو القضية المدروسة ووحدة عناصرها وتكاملها مع بعضها وانسجامها مع مقاصد القرآن وروحه، وإصابتها الهدف الذي هو إجابات القرآن وهديه، الموقع المحوري في التفسير الموضوعي، وهذا يعني أن لوضوح القضية المستشكلة في ذهن المفسر وحضور العناصر الأساسية للسؤال أهمية

---

١ تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، الطبعة الرابعة،١٤١٦هـ ـ١٩٩٦م ، ص ١٢٨ـ١٢٩.

٢ قالوا: كل ما في القرآن من ذكر الأسف فمعناه الحزن، إلا قوله تعالى: (فلما آسفونا انتقمنا منهم) الزخرف ٥٥، فمعناه أغضبونا، وكل ما في القرآن من ذكر البروج فهي الكواكب، إلا قوله تعالى:(ولو كنتم في بروج مشيدة) النساء ٧٨، فهي القصور الطوال الحصينة. يراجع: تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله بن الزبير، نشر رابطة العالم الإسلامي ، السعودية ، ص ١٢٠.

بالغة، فإذا كان الموضوع مشوشا أو غير ناضج، في ذهن المفسر أو كان خارجا عن إطار تخصصه، فإنه سيفشل في معالة الموضوع وتقديمه بصورة تعكس موقف القرآن وهدايته.

من أجل هذا أقول: إن عمدة التفسير الموضوعي هي الوحدة في الموضوع والترابط بين عناصره والتماسك بين المقدمات والنتائج، وهذا لا يحصل عليه، ولا يتمكن منه، إلا من خبر الصحبة الطويلة، والمعايشة الدائمة لكتاب الله، مع الأهلية العلمية وسلامة القصد بطبيعة الحال، ولذلك مازلت أرى ـ في كتب الباحثين ـ أن جودة التفسير الموضوعي تتماشى مع خبرة المفسر في صحبة القرآن والجهاد به في مختلف مناحي الحياة، لأن الخبرة في الحياة تنضج القضايا والاستفهامات، ودوام صحبة القرآن تضيء الهداية والإجابات، ولا يقدر على تفسير موضوعي جيد إلا عالم عامل صادق يجاهد ما في الحياة من إسفاف وانحدار بما في القرآن من رفعة وعلو، سواء بمنهجية تدرس الوحدة الموضوعية في اللفظة القرآنية أو في السورة القرآنية أو في الموضوعات القرآنية.

المبحث الثاني: فوائد التفسير الموضوعي وحاجتنا إليه في المحاجَّة

لاشك بأن النص القرآني هو نص مفتوح على المعرفة، لا بمعنى أنه يستوعب أصول معارف الناس وكلياتها في كل زمان ومكان فحسب، بل بمعنى أنه يسهم في تقدم المعرفة البشرية أيضا، ويهيمن عليها مصححا مسارها ومحفزا لها على التنمية والتقدم المستمرين في الاتجاه المستقيم فهو لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد..

لكن السؤال الذي يعرض لنا في مجال الفهم والتفسير إنما هو حول قدرة المسلمين على استنباط الهدايات والمعارف من الخطاب القرآني، وليس حول قدرة الخطاب القرآني الإلهي نفسه على العطاء، الأمر الذي لا مجال للشك فيه:(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).[1]

من أجل هذا كانت عناية العلماء منذ جيل الصحابة الأول في الإسلام ـ رضوان الله عليهم ـ مركزة على استنباط مناهج منضبطة لتفسير القرآن وتأويله بما لا يخرج به عن دلالاته المرادة ومقاصده العامة، وبما يجعله إماما متبوعا لا نصا موقِّعا على ما قد يوجد في نفوس الناس من زيغ!

وقد رأينا أن مدرسة "التفسير الموضوعي" بكافة اتجاهاتها سالفة الذكر، تعد اجتهادا رائدا في السعي إلى تحقيق هذا الهدف، وقد برهنت من خلال الدراسات الكثيرة النافعة على قدرتها المنهجية والموضوعية على استنباط المعرفة من النص، واستيعاب ثم تجاوز العقبات التي تمنع الفهم الصحيح المتحرر من مكبلات الثقافة القديمة لا سيما في عصور الضعف السالفة، أو تلك المستوردة الداخلة على النص في مرحلة الضعف المعاصرة أيضا، من هنا كانت الحاجة ماسة إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ويمكن تلخيصها في ثلاثة مطالب على الشكل الآتي:

---

١ الملك، ١٤ .

المطلب الأولً: طبيعة القرآن وطبيعة التفسير الموضوعي

القرآن الكريم خطاب رباني معروف البناء، محدد الحروف والكلمات والآيات والسور، لا يزيد فيه حرف ولا ينقص منه حرف، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كما قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)[1]، لكنه لا متناهي الإيحاء والهداية وتجدد عطائه ومعانيه، وهذه خصيصة لا يشاركه فيها أي نص، إذ إنها من مظاهر إعجازه ومتأتية من كونه الوحي الخاتم، أي هو كلمة الله الوحيدة الباقية على ظهر الأرض سراجا ينير حياة الناس.

ومنهج التفسير الذي يقف عند ظواهر الآيات يحد من خاصية الهداية القرآنية المفتوحة، كما يحد منها منهج التفسير الذي لا يفهم معاني القرآن إلا من خلال النقول وتكرير ما قيل في حقبة زمنية بعينها.

والذي ينسجم مع هذه الخاصية في طبيعة القرآن العظيم، هو منهج التفسير الموضوعي، لأنه منهج مفتوح على المعرفة المتجددة، وعلى حاجة الأمة، كما أنه متكامل مع المنهج التحليلي، وليس مخاصما له.

وبيان ذلك، أن الموضوعات التي تعالجها الدراسات القرآنية الجارية على منهج التفسير الموضوعي، نوعان:

أولا- موضوعات واردة على القرآن. ثانيا- موضوعات صادرة عن القرآن. وكلاهما يتلاءم وطبيعة القرآن .

أولا- الموضوعات الواردة على القرآن: أعني أن الإنسان بحكم نسبيته وعيشه في إطار المكان والزمان، وارتباطه بالواقع والتاريخ، ترد عليه مسائل وقضايا، كما تعترضه مشكلات عديدة، سواء في الحياة العملية أو العلمية، وسواء في الموضوعات الكلية أو الجزئية، كان ذلك جزءا مما يعرضه البناء الثقافي الداخلي، أم جزءا مما يعرضه التحدي المعرفي لدى الأمم الأخرى،

١ الحجر ،٩ .

فوظيفة القرآن الكريم أمام ما يلح على الإنسان من قضايا عصره، أن يقدم له إجابات وهدايات تزيح عنه حيرته، وتهديه سبل السلام.

فالمفسر يعرض الموضوع بحيثياته الواقعية على القرآن الكريم، ويستوحي منه الرؤية الصحيحة والتوجيه الكامل، كما روي عن سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قوله: " لو ضاعت مني إبرة وبحثت عنها في القرآن لوجدتها"، ومثل ذلك عن ابن عباس " لو ضاع لي عقال بعير وبحثت عنه لوجدته في القرآن"[1]، ولا يفهم عاقل من هذا الكلام أن القرآن خزانة تحفظ فيها الأشياء الضائعة! بل يعني ذلك، أن في القرآن القدرة على تزويد الإنسان بما يحتاج من الهداية والإرشاد وتزويده بالمنهج والمفاتيح، مهما ظهر أن ذلك الموضوع بعيد عنه.

فالقرآن لا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه ، ولا تزيده الأيام إلا رفعة وجدة، كما ورد في الأثر عن الإمام علي – رضي الله عنه – في وصف القرآن: " كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، من ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.." .[2]ولم أر في وصف فضاء القرآن المفتوح من الهداية والإرشاد أبلغ من هذا الكلام، إنه يعبر ببلاغة نادرة عن كون القرآن الكريم متعاليا عن حدود

---

١ روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي، دار الفكر ، بيروت، ١٤٠٣هـ ـ١٩٨٣م، ج١٤ ، ص٩٨ ولم أقف على تخريج الأثرين رغم شهرتهما.

٢ حديث حسن، رواه الترمذي والدارمي وغيرهما عن علي رضي الله عنه، والأصح وقفه على الإمام علي والله أعلم. قال عنه الإمام المحدث ابن كثير في فضائل القرآن: الحديث مشهور من رواية ابن الأعور وقد تكلموا فيه قال الترمذي: حديث لا نعرفه إلا من هذه الوجه وإسناده مجهول وفي الحارث مقال.. قال بعض الباحثين: قصارى هذا الحديث أن يكون من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وقد وهم بعضهم في رفعه وهو كلام حسن صحيح .

الزمان عاما وشاملا لكل ما يمكن أن يجد من قضايا التي تتحول باستمرار إلى أدلة على خلود القرآن.

ثانيا – الموضوعات الصادرة عن القرآن: لا تقف عجائب القرآن عند حد الجواب عن الاستفهامات المتجددة، بل إن للقرآن الكريم دورا أساسيا في إنتاج المعرفة، ولذلك هو " كريم "، فإذا جئت تقف على باب الوحي تستفهم عن جواب لسؤالك، زودك بالجواب، وزاد على ذلك أن يفتح لك آفاقا جديدة للمعرفة.

بهذا المعنى يكون القرآن نفسه مصدرا ملهما للأفكار، مثيرا للقضايا، ومعمقا وهاديا للبحث فيها، أنظر إلى قوله تعالى: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق)[1]، وآيات النظر والتأمل والسير في الأرض كثيرة محفوظة، ترك القرآن مجال البحث فيها مفتوحا، مثال ذلك قصص الأنبياء والأمم السابقة وعلم الآثار، فلقد كنت ولا أزال مندهشا كيف يسعى علماء الآثار في الغرب إلى البحث عن مواقع الحضارات القديمة بناء على إلياذة لهوميروس أو قصيدة أو أسطورة يونانية قديمة، ولا يسعى علماء الآثار المسلمون إلى الكشف عن بقايا حضارات عاد وثمود وقوم لوط وسائر الرسل والأمم المذكورة في القرآن - إلا قليلا - ، مع أنه المصدر الحق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.[2]

---

١ العنكبوت، ٢٠ .

٢ بل أظهر بعض الباحثين مهارة في تزييف الحقيقة ونفيها عن القصص القرآني، والقول إنه نوع من الأسطورة فظاهروا بذلك قول المشركين في القرآن بأنه أساطير الأولين، كما ادعى ذلك محمد أحمد خلف الله في رسالته للدكتوراه عن الفن القصصي في القرآن الكريم، التي رفضتها اللجنة العلمية، ثم طبعت في كتاب، أثار زوبعة من الجدل، وقد علمت مشافهة من أستاذنا الدكتور عبد الحليم عويس أن الرجل عاش ومات مركسيا ولم تعلم عنه توبة والله =

ولعل من فوائد التدبر في موضوعات القرآن الكريم ملاحظة الأولويات، فما اهتم به القرآن وجعله أصلا يجعله الباحث في التفسير الموضوعي أصلا ومحل اهتمام، وما جعله القرآن عابرا يجعله عابرا، "بمعنى أن نتخذ من القرآن معيارا لمدى أهمية الشيء أو عدمها. فما عني القرآن بذكره من المعاني والموضوعات، وجعله في بؤرة اهتمامه، وكرر الحديث عنه، بصورة و أخرى ، وبأسلوب وآخر ، يجب أن يأخذ من عنايتنا واهتمامنا المكان اللائق به في الفكر والشعور والسلوك وأن يكون لذلك أثره العملي في ميادين التثقيف والتربية والتشريع، إقتداء بالقرآن " [1] ولا يتأتى هذا الأمر إلا بالمنهج الموضوعي الذي يحيط بموضوع ما من خلال القرآن الكريم ويستوعبه.

من أجل هذا يمكن القول: كما توجد موضوعات ينتجها الواقع، توجد كذلك موضوعات تتولد نتيجة التدبر لمعاني القرآن الكريم، وكثرة التردد عليه والمعايشة له .

فالقرآن هو الكتاب الذي استوعب كل جوانب الحياة، بكل ما تحمل هذه الكلمة من المعاني، فإذا تدبر فيه علماء العقيدة والشريعة، أو علماء الكون والأحياء، أو علماء النفس والاجتماع، أو علماء الحضارة والتاريخ.. رجع كل منهم بزاد يعينه على فهم تخصصه والإبداع فيه، فهو كالنهر الجاري كل يأخذ منه بقدر وعائه، وفي إطار تخصصه وعلى مقدار فهمه لجانب ما من جوانب الحياة وزاوية ما من زوايا معرفة الكون وأسراره.

=أعلم بالسرائر. فانظر كيف يبحث الأوروبيون عن قشة حقيقة في ركام أساطير وأباطيل إلياذة هوميروس مثلا، وكيف يوجه بعض الباحثين العرب اجتهاداتهم لنفي الحقيقة عن أخبار القرآن التي قال فيها تعالى: فاقصص القصص الحق. بدل تقصيها وتتبعها في آفاق الأرض وفجاجها !

١ كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، الطبعة الخامسة، ٢٠٠٦م ، ص٤٥١.

وهذه الخاصية تجعل التفسير الموضوعي، تفسيرا حيويا وعميقا يمتلك معرفة مفتوحة على النص وعلى الواقع على حد سواء.

وحيوية التفسير الموضوعي، هي حيوية مطلقة لا تنفد، مستقاة من حيوية القرآن الكريم نفسه، الذي لا يتناهى عطاؤه، فكلما جد أو استحدث موضوع، انبرى أهل الاختصاص له يغرفون من هدايات القرآن ويستفيدون من توجيهاته، مهما كان هذا الموضوع مرتبطا بالشرع وحقائقه، أو بالكون ودقائقه، أو بالإنسان في خلقه وأخلاقه، أو بالأمة في عمرانها وتمكينها أو غير ذلك.

المطلب الثاني: قدرة التفسير الموضوعي على محاجَّة المخالف

برهن التفسير الموضوعي حتى قبل أن يكتمل بناؤه المنهجي - أي منذ الستينيات في بدايات الكتابة فيه - على أنه يمتلك قدرة بالغة على المحاجَة والدفاع عن الإسلام والعقيدة الإسلامية.[1]

ذلك أن العصر الذي نعيش فيه، سمته التقعيد والتأصيل ضمن أطر عامة، لذلك فنحن بحاجة اليوم لتأصيل المعارف الإسلامية أكثر من أي وقت مضى.

كما أن طبيعة التحديات الحديثة والمعاصرة، هي من نوع التحديات المعرفية والحضارية الكبرى ذات الطبيعة الكلية، التي تستهدف استبدال أنموذج بآخر، ومحاربة الأصول العامة لثقافات الشعوب المغلوبة، ومنها ثقافة الأمة الإسلامية التي ما فتئت تتعرض للغزو الفكري والمسخ الاستشراقي والتغريبي.

هكذا فالتحديات المعاصرة لم تعد تكتفي بإثارة الشبهات حول قضايا جزئية، كتعدد زوجات الرسول، أو بعض قضايا الميراث، أو الولاية على الزواج..الخ، بل باتت تعمل على محاربة الإطار الكلي حين تعرض نفسها في شكل نماذج ورؤى شاملة عن الله والدين والإنسان والكون، وحين تقدم أيديولوجيات مختلفة وتفرضها على العالم الإسلامي، في مجالات الثقافة والاقتصاد والسياسة والاجتماع.. وتطوِّع حتى تفسير القرآن الكريم في سبيل خدمة تلك المشاريع كما نرى مع الحداثيين في استعمالاتهم اللسانيات والمنهج التاريخاني في تفسير القرآن على الهوى الأيديولوجي. !!.

وإذا قدمت الحضارة المعاصرة صورة كلية – وإن كانت مزيفة - عن الله أو عن الطبيعة أو عن الإنسان أو عن نظام الاقتصاد أو عن مفهوم الدولة.. الخ، فهل تنفع حينئذ الإجابات الجزئية؟.. طبعا لا.

---

١ رسالة المسجد (مجلة)، بحث: المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله، عبد الرحمان الحاج إبراهيم، سوريا، العدد الأول، جمادى الثانية،٢٠٠٣م ، ص ٢ .

ومنهج التفسير الموضوعي هو الأقدر هاهنا على التصدي لهذا الغزو حين يقرر جمع أطراف الموضوع الواحد من خلال كافة نصوص القرآن، فيُعمل المفسر عقله واجتهاده ليصل إلى التنظير ثم إلى التقنين لأصول المعرفة حول الموضوعات الكلية الكبرى على ضوء مقاصد القرآن وهداياته، ومن ثمّ يبين الموقف القرآني من الموضوع، وكيفية المعالجة القرآنية له، وبذلك فهو يمتلك القدرة على المحاورة، والمقاومة بخصوص أي موضوع كلي على الساحة الفكرية والمعرفية المعاصرة، من هنا كان التفسير الموضوعي للقرآن سلاحا علميا لا غنى عنه في المعركة الفكرية الناشبة بين الإسلام وأعدائه في زماننا هذا.

فمن الممكن لو ضاعت صورة الأنموذج الكلي لمنظومة معينة أو تشوشت في أذهان أصحابها أن يضل هؤلاء السبيل عنها، خاصة في فترات الجمود والتدهور الحضاري، لأنهم - من غير علم ولا شعور- أحيانا يستوردون الأفكار من منظومة أخرى، فتتلوث عقولهم من حيث لا يشعرون " فمن لا يُحكِم ضبط الكليات ، يضطرب ولا يحسن فهم وعلاج الجزئيات." [1]

وأما حين تكون الأمة واعية بالإطار العام لعقائدها وشرائعها وأخلاقها ورؤيتها الحضارية، فإن ما يصل إليها من طريق الأمم الأخرى بفعل قانون التفاعل الحضاري، فإنه يأخذ موقعه المناسب ضمن المنظومة الحضارية، إما بالرفض أو القبول أو التعديل.

وحينئذ يمكن للمفسر أن يظهر أوجه الاتفاق أو الاختلاف في موضوع ما، كما يسهم في تقويم الاعوجاج المعرفي لدى الأمم الأخرى، وكشف ما هم عليه من ضلال، ويبرز تفوق الإسلام وأحقيته بقيادة الثقافة الإنسانية كلها، وبذلك يؤدي المفسر خدمة لأمته بسد حاجتها إلى التحصين ، وللإنسانية كافة بالنصح والهداية والإرشاد.

---

١ الوسطية : المفهوم والمصطلح ، عصام أحمد البشير ، دار المأمون للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٨م، ص٢١.

إن الأفكار الخبيثة تمتد في فراغنا، وإن الدراسات الموضوعية من خلال القرآن الكريم هي التي تمكن من سد الفراغ المعرفي الذي يترك المجال للأفكار المميتة، فالذي يصنع الفارق أحيانا في قيم مجتمع ما ليس هو صحة الفكرة بل فاعليتها "فكرة أصيلة لا يعني ذلك فعاليتها الدائمة، وفكرة فعالة ليست بالضرورة صحيحة، والخلط بين هذين الوجهين يؤدي إلى أحكام خاطئة تلحق أشد الضرر في تاريخ الأمم. [1]"

إن الأفكار الفاسدة حين تكون نشطة ومتحركة تأخذ موقع الصدارة في المجتمع حتى وإن لم يكن هذا الموقع هو موقعها الطبيعي، من هنا يبرز الجانب البنائي في أهمية التفسير الموضوعي للقرآن الكريم .

١ ينظر: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، مالك ابن نبي ، دار الفكر ، دمشق ، ص ١٠٢

المبحث الثالث: التفسير الموضوعي والقدرة على البناء الداخلي

تجدر الإشارة هنا إلى فكرة دقيقة قد لا ينتبه إليها كثير من الباحثين، وهي أن الخطر الذي تفرضه تحديات المذاهب المادية واللاّدينية عموما على الأمة الإسلامية، لا تتمثل فقط في خطر الغزو الفكري، بل هذا الغزو في تصوري هو مظهر خارجي للحركة التاريخية الفعالة في هذا الفكر، فهو يوما بعد يوم يبني كمّا كبيرا من الإنتاج الثقافي المادي خارج هداية الدين عموما وقيم الإسلام على الخصوص، وهذا التحدي – الذي منبعه النشاط والحركة – على عكس الغزو، لا يفرض علينا مقاومة ورد فعل، بل يتطلب منا بناء معرفيا إيجابيا، وإنتاجا ماديا نستغني به عن استهلاك الإنتاج الفكري والمادي للأمم الغازية، ولا يتم هذا الأمر من غير بناء داخلي وبدائل ملموسة.

ومن ثمرات المنهج الموضوعي في التفسير، تلك الدراسات التي تقدم مساهمة نوعية في شتى المعارف الإنسانية، لاسيما التي تمس الحاجة إليها في واقعنا المعاصر، من تربية واقتصاد وإعلام وسياسة وطب وما إلى ذلك، وإثراء المدرسة الإسلامية في الميادين النظرية والتطبيقية، ليتم تحصين الذات لا بالدفاع فقط بل بالبناء في المقام الأول.

فقوة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم لا تتجلى في قدرته على المقاومة وتحصين الذات، و"رد الفعل" المناسب على الغارة الفكرية على الأمة الإسلامية فحسب، بل تتجلى كذلك - وبشكل أساس – في قدرة هذا المنهج على " البناء " وعلى " الفعل " وتقديم البدائل وتعميق المعارف وتأصيل العلوم.. وتتمظهر هذه القدرة فيما يأتي:

❁❁❁❁❁

المطلب الأول: إعادة بناء المناخ الثقافي والرؤية الكلية

وأعني بالمناخ الثقافي، ذلك الوسط الحيوي الذي يتلقى فيه الأفراد " قيَّما كلية" في المجتمع ، ويشكلون فيه " رؤية كلية " - عملية - لما هو حسن وما هو

قبيح، وما هو مقبول وما هو مرفوض، وأخرى - نظرية - تكوّن لديهم التصورات الكلية لطبيعة الخالق والخلق ونظام الحياة، وهذه الرؤية تسري في المناخ الثقافي كما يسري الهواء في المناخ الطبيعي.

وما من أمة لها حضارة إلا وتمتلك رؤية كلية، ومناخا ثقافيا حيويا يحتضن هذه الرؤية، وفي إطارها يحكم أفراد هذه الأمة أو تلك على الأشياء، فقد تكون الحضارة ذات طبيعة مادية وقد تكون ذات طبيعة روحية، وقد تكون – كما هو الحال في الإسلام - ذات طبيعة ثنائية متوازنة..الخ، وينعكس تصورها لله والكون والإنسان على كافة مظاهر نشاطها الحضاري، كما ينعكس على ما ينشأ فيها من مذاهب وأيديولوجيات.

وإذا جئنا نستوضح " المناخ الثقافي " للجيل الأول من تاريخ الإسلام، نجد علماء السيرة يشيرون إلى أهمية هذا المناخ الفطري الخام الذي كان يميز شبه الجزيرة العربية، فكان ذلك من أسرار اختيار الله تعالى لهذه الأرض كي تحتضن الرسالة الخاتمة، ولو بعث سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في امبراطورية عجوز، كدولتي الفرس أو الروم، لتحول من يومها الوحي نفسه إلى مناقشات فلسفية وجدل بيزنطي عقيم، فمناخهما الثقافي المثخن بجراح المناوشات بين المذاهب والأيديولوجيات كان كفيلا بأن يضيع نقاء الوحي ويقضي على وظيفته في التغيير ويحول حقائقه إلى جدل وكلام، في حين تحوَّل الوحي في مناخ الجزيرة العربية إلى اجتهاد وجهاد وتضحية والتزام وعمل، وتحقق به إنجاز حضاري غير مسبوق في تاريخ الإنسانية كلها!

إن السرَّ في ذلك يتضح أكثر عندما نلاحظ أن القرآن المكي كان يركز على المناخ الثقافي ويشيد بناءه، بما يثبته في نفوس المؤمنين، من أصول التوحيد وقيم الأخلاق، حتى استقرت رؤية الإسلام الكلية في نفوس الصحابة وأذهانهم، ففهموا الأحكام الشرعية الجزئية، والتزموا بها على الوجه الصحيح، بلا حاجة إلى تحديد عناصرها وأصولها النظرية في علم مستقل، تقول السيدة عائشة رضي الله عنها في بيان هذا النهج ".. إنما نزل أول ما نزل منه [أي القرآن] سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال

والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبدا، ولو نزل لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبدا.."[1]

لقد تلقى الصحابة هذه الرؤية عمليا، لأن القرآن كان هو ما يسري في هذا المناخ، وكل فرد مسلم كان يستصحب معالم هذه الرؤية الكلية، إذ " المناخ والإطار الروحي والاجتماعي والفكري والتربوي الذي وصفه النبي صلى الله عليه وسلم، كان قادرا على أن يعطي النظرة السليمة في تقييم المواقع والمواقف الأحداث "[2]، ومثل ذلك كمثل أعرابي يعيش وسط عرف لغوي ولسان عربي صرف، فلسانه مستقيم على البيان العربي من غير حاجة إلى تقعيد القواعد والإحاطة بعلم الإعراب، بخلاف الأعجمي الذي لا يعيش هذا المناخ اللغوي، فيتعذر عليه الكلام السليم من غير استيعاب القواعد النظرية والتدرب على تطبيقها. وهذا يجيب عن ما قد يتبادر إلى أذهان بعض الباحثين من القول: لمَ لم يحتج جيل الصحابة إلى منهج التفسير الموضوعي في بناء الرؤية الكلية؟

فإن المسلمين لم يحتاجوا إلى الدراسات الموضوعية الكلية لأنها كانت تنبض بالحياة في جسم الأمة، وكانوا على إدراك لها لأنهم كانوا يتحركون فيها ويصدرون من خلالها، وحين انحسر تأثير القرآن في واقع المسلمين، وتراجع دور الإسلام في مجالات الحياة المختلفة، واستبدلت نماذج يمينية ويسارية بشريعة الإسلام، ظهرت الحاجة الكبرى إلى المنهج الموضوعي في تفسير القرآن ليعرض الإسلام كنظرية عامة، لها موقفها ورؤيتها الخاصة وتطبيقاتها في كافة مجالات الحياة الكبرى.

فالحاجة إلى التفسير الموضوعي اليوم تنبع من الحاجة إلى عرض مفاهيم القرآن ومواقفه، عرضا نظريا يحدد الأسس التي تنبع منها جميع التشريعات والتفصيلات، لما للتطبيقات الجزئية من علاقة وطيدة بالأسس النظرية التي

---

١ أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن ، طبعة المكنز الإسلامي، ج٣ ، ص١٠٥٠ .

٢ المدرسة القرآنية ، باقر الصدر ، مرجع سابق ، ص ٣٤ وما بعدها .

تنبثق منها. لأن الفهم الجزئي بعيدا عن إطاره الكلي قد يوقع المفسر في الخطأ أحيانا، ويستغله أصحاب الأهواء أحيانا أخرى، والفهم العميق للقرآن يتطلب جمع عناصر الموضوع من كافة جوانبه بقدر الطاقة والوسع، أي يتطلب فهما ومنهجا كليا لا جزئيا، موضوعيا لا تحليليا.

وإعادة بناء المناخ الثقافي يكون بإعادة بناء أصول المعارف والعلوم ، وليس التفصيلات التي هي نتيجة تأتي بالتبع، وهذا العمل هو أحد التحديات الكبرى التي يرفعها المفسر وهو يتعامل مع منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

المطلب الثاني : الانفتاح على الاختصاصات العلمية المختلفة

من مزايا المنهج الموضوعي في التفسير قدرته على الانفتاح على جميع التخصصات العلمية النافعة، الكونية منها والشرعية، فأهل التخصصات الكونية معنيون أن يسهموا في بيان معاني القرآن وإدراك مقاصده، بما يعرفونه عن الكون من أسرار، فإن الكون يفسر القرآن، كما تفسره السنة النبوية، واللغة العربية، والمعرفة الدقيقة بالكون هي مدخل طبيعي للوعي بما في القرآن الكريم من حقائق عنه وهذا المبدأ مبني على أن الله هو خالق الموجودات وهو المتحدث عنها في القرآن، ومن ثم فكلما ازداد الناس معرفة بدقائق صنعة الله في خلقه، كلما ازدادوا إدراكا واستيعابا لعمق المعاني التي وصف الله بها خلقه وصنعته، وكما أن مجال المعرفة الكونية مفتوح، فكذلك معاني القرآن مجالها لا متناهي وحيويتها لا تنقطع.

وكذا فإن تنوع ما ورد في القرآن من موضوعات بين العلوم الكونية والعلوم الإنسانية، فضلا عن العلوم الشرعية، تقتضي من الباحث على منهج التفسير الموضوعي – بل وتضطره - إلى أن يلم بثقافة شرعية وثقافة كونية واسعتين، فضلا عن اختصاصه الذي يبرع فيه، وإلا لما استطاع أن يحاور آيات القرآن

الكريم ويستنبط منه معانيه ودقائقه، بهذا " يكون التفسير الموضوعي هو الوسيلة المنهجية العلمية للارتفاع بمستوى التفكير العلمي الموضوعي عند الباحثين."[1]

فضلا عما استحدث في عصرنا من علوم نعيش على وقع نتائجها ولها وجود بيننا، وقوام الشعوب والأمم المعاصرة عليها، ولها دور خطير في الحياة المعاصرة، كعلم التكنلوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد وعلم الإعلام والاتصال والعلوم السياسية.. وغيرها فالمنهج الموضوعي منفتح على هذه الموضوعات التي ترد على النص من الواقع، إذ "يركز الباحث نظره على موضوع من موضوعات الحياة، العقدية أو الاجتماعية أو الكونية، ويستوعب ما أثارته تجارب الفكر الإنساني حول ذلك الموضوع من مشاكل وما طرحه التطبيق التاريخي من أسئلة ومن نقاط فراغ، ثم يأخذ النص القرآني، فيسأل والقرآن يجيب على ضوء الحصيلة التي استطاع أن يجمعها من خلال التجارب البشرية الناقصة." [2]

المطلب الثالث : القدرة على الإجابة عن الاستفهامات المتجددة

من خصائص المنهج الموضوعي في التفسير تفعيل هدايات القرآن الكريم ومقاصده، وهو حجر الزاوية في معالجة القضايا المعاصرة فإذا كانت النصوص محددة والوقائع متجددة، فمعنى ذلك أننا لا نجد دائما نصا مباشرا لكل حادثة، من هنا، فإن حكم القرآن ومقاصده وهداياته تزود المفسر بالمعاني التي لا ينفد معينها، للإجابة عن الإشكالات والاستفهامات، فيصل الباحث إلى الأنوار القرآنية الكاشفة التي ترسم له الطريق، وتحدد له معالم الموقف القرآني والرؤية الشرعية، فآيات الوحي الإلهي لا تقارن بكلام البشر، إذ هي " آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهية الأخرى، وتطوي هذه الآيات في جوانحها ما تطويه

١ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م ، ص٥.

٢ المدرسة القرآنية ،باقر الصدر، مرجع سابق ، ص١٩-٢٠ باختصار.

من الهداية والنور والمعاني، والإجابات التي تتكشف عبر العصور بتكشف وظهور حاجات الأمم.. وأسئلة ومسائل الحياة وأزماتها، فكأن المعاني تتنزل مع بروز الأزمات والمشاكل والأسئلة، فإذا كانت الجاهلية العربية قد استحالت إلى إسلام خلال ثلاثة وعشرين عاما، فإن أي عصر تال وأية بيئة أخرى يمكن أن تجعل من أسئلتها أسباب نزول للمعاني الجديدة التي تنطوي الآيات عليها.. فالنزول القرآني يأتي بعد أن تصوغ البيئة السؤال وتتجه إلى القرآن المجيد ضارعة مفتقرة، وتطّرح بين يديه وتثوره مرة بعد مرة لتحصل منه على الجواب الشافي.."[1]

إن المنهج الموضوعي يجعل الباحث كذلك متصلا دائما بواقع أمته وهمومها، فهو "دائم الربط بين الواقع الذي تعيشه الأمة وبين القرآن، وهو يريد اصلاح الواقع على هدي آيات القرآن، ويدرك الأبعاد الواقعية للموضوعات القرآنية[2]" وبذلك يجسّر البحث الموضوعي العلاقة بين النص القرآني والواقع ، فلا يستطرد في تحليل وقائع ميتة، ولا يفهم القرآن بمعزل عن حيثيات الواقع، هكذا تكون الاستفهامات المتجددة هي " الموضوع " محل البحث من خلال القرآن الكريم، فيتحول التفسير من ثقافة تقليدية إلى درس هدفه البناء والإصلاح والتغيير.

وهذا اللون من التفسير هو الذي " يتفق مع روح العصر الحديث الذي يطالبنا أن نخرج للناس أحكاما عامة.. مصدرها القرآن الكريم، في صورة مواد وقوانين مدروسة يسهل تناولها والانتفاع بها. "[3]

---

١ الوحدة البنائية للقرآن المجيد ، طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية ، ط١، مارس ٢٠٠٦م، ص٢٤-٢٥.

٢ التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، مرجع سابق ص٤٢.

٣ البداية في التفسير الموضوعي ، عبد الحي الفرماوي، مطبعة الحضارة العربية، ط٢، ١٩٧٧م، ص٧٠.

إن أهمية التفسير الموضوعي لتزداد إلحاحا في الفترة المعاصرة التي تسارعت فيها القضايا والمشكلات وتعقدت، وتميزت بنشأة المذاهب والأيديولوجيات الكثيرة التي ترفع تحديات كبرى أمام المنهج الموضوعي في التفسير، من أجل شرح موقف القرآن وموقع أمة الإسلام ممّا يموج به العالم من الأفكار، وليس أقدر من القرآن على الإجابة عن هذه التحديات إذا تعامل معه المسلمون بالمنهج الموضوعي الشامل.

المطلب الرابع: إظهار هيمنة القرآن على المعارف والعلوم البشرية

لم يبق كتاب إلهي على وجه الأرض يمثل الدين الصحيح إلا القرآن الكريم لذلك يحتاج الناس إلى معرفة هديه غاية الاحتياج، وإلى فهم ما حواه من شمول موضوعي بالغ غاية الكمال، وإلى إدراك ما يقدمه لهم من حلول لمشكلاتهم النفسية والاجتماعية ومعضلاتهم الأخلاقية.

والمنظار القرآني هو المصفاة التي لا تخطئ في تسديد المعارف، وتعديل مسار العلوم، كما أنه المنبع الذي تصدر عنه العلوم النافعة، من هنا كانت هيمنة القرآن المجيد على المعارف البشرية، إما بالوصول إلى علوم قرآنية جديدة، وإما بتصحيح مسار العلوم المعروفة.

فمنهج التفسير الموضوعي- كما يرى أحد أعلامه البارزين- يمكّن من الوصول إلى علوم قرآنية جديدة، مثل: علم الأصول القرآنية الذي يدرس الأصول الجامعة والقواعد الحاكمة، والقوانين العليا، التي تضبط كل ما يتصل بالإسلام والقرآن من علوم وفنون.. وعلم الحكمة القرآنية الذي يبرز فيه منهج القرآن في الدعوة والإصلاح، وأسلوبه في الهداية وتطبيق المبادئ، وطرائقه الفذة في سياسة الأفراد والجماعات من تدرج في التشريع، والرفق، والمطاولة

مع الخصوم، والتناسب مع الأحداث والوقائع بتنجيم القرآن وتقديم التربية على المعرفة العقلية المجردة.[1]

إن كثيرا من العلوم القائمة تحتاج إلى هيمنة القرآن الكريم عليها بالتصحيح والتعديل، من أمثلة ذلك علم التاريخ الذي كان يهتم بالأخبار والروايات وجمع الأحداث، من غير أن يجعل من الكشف عن سنن الله في الآفاق والأنفس والمجتمع والحضارة غاية له، ومن خلال الدرس الموضوعي للقرآن الكريم ، نقف على هذه السنن في أكثر مواضع القصص الذي يشمل ثلثي آيات القرآن تقريبا، والسياق القرآني يؤكد أن الهدف من دراسة التاريخ ليس الشغف بإحصاء الروايات وتفاصيل الأحداث، بل استنباط القوانين والسنن واستخلاص العبر التي ينتفع بها أصحابها في مستقبل أيامهم، لأن سنة الله لا تتبدل فهي في الأولين والآخرين سواء، ولا شك أن هذا المنهج القرآني هو الذي استفاد منه العلامة ابن خلدون في تدوينه علم العمران.

وما يقال في تصحيح مسار علم التاريخ يقال في علوم كثيرة، كالإعلام والاقتصاد والبيئة.. الخ، فالقرآن الكريم هو الكفيل ببيان مبادئها ومقاصدها والشروط الأخلاقية المرتبطة بها.. وتبقى تفاصيل البحث التقني للعقول تسيح فيها كما تشاء، فالرؤية القرآنية تصحح المسار العام للعلوم ولكنها لا تعوض دور العقل في البحث العلمي التفصيلي، بل تحفزه وتقويه وتحفظه من الزيغ والانحراف.

هكذا تتضح هيمنة كتاب الله على معارف البشر من خلال إعمال المنهج الموضوعي في التفسير.

❁❁❁❁❁

١ ينظر: المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد، ص ٤٧-٥٠ .

المطلب الخامس: أثره في إظهار أوجه جديدة لإعجاز القرآن

يعد الإعجاز موضوعا أساسيا بالنسبة لكافة الرسالات السماوية لدلالته على صدق النبي وحقيقة رسالته، فما من نبي إلا وأيده الله بما يعجز قومه عن الإتيان بمثله، فيؤمنون له أو تقام عليهم الحجة.

ومن خصائص الإعجاز أنه يتحدى القوم بما يبرعون فيه، ويبلغون فيه درجة الصدارة والإمامة، فلما برع قوم موسى في السحر، جاءهم موسى من الله بالمعجزة التي تتخطى كل ما أدركوه من علوم السحر، وكان أول من آمن لموسى في موقف التحدي العظيم هم سحرة فرعون أنفسهم، لقد أدركوا من موقع خبراء الأمور أن الذي جاء به موسى ليس بسحر!

ومن خصائص الإعجاز- أيضا – التوافق مع طبيعة الرسالة التي بعث بها النبي من جهة عمومها لكافة الناس أو اختصاصها بقومه، ومن جهة المستوى العقلي الذي يميز القوم والعصر اللذين أرسل فيهما النبي، لذا كان الإعجاز قبل الإسلام حسيّا كعصا موسى، وإبراء عيسى الأبرص والأكمه وإحيائه الموتى بإذن الله، كما أن الإعجاز لم يكن من جنس الرسالة، فالعصا والطب والخوارق شيء، ومحتوى رسالة الأنبياء شيء آخر.

وهذا النوع من الإعجاز كان كافيا لرسالات لم يكتب لها أن تكون خاتمة ولا خالدة، ومتناسبا مع مستوى البشرية التي لم تكن قد بلغت الرشد فكانت تميل إلى المحسوسات، وطبيعة المعجزة الحسية أنها حجة على من شهدها، ومن نقلت إليه بالتواتر المتصل السند، لكنها تفقد تأثيرها مع مرور الأيام بل القرون المتطاولة حيث تمتزج بالخرافات والأباطيل ولا يعف الناس فيها الحق من الباطل.. !

ولما كان الإسلام هو الدين الخاتم والخالد و كلمة الله الفصل إلى يوم الدين، كان إعجازه من نوع مختلف.. نوع جمع مزايا ما قبله، وتفرّد بمزاياه الخاصة التي لم يبلغها سواه، فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة بكل مقاييس الإعجاز الخالد، من جميع النواحي، ولكل العصور.

كان أول ما أدركه أئمة البيان والبلاغة العربية من عرب الجاهلية، أن هذا الكلام الذي قد تخطى كل الحدود التي عرفتها طاقات ألسنتهم اللغوية، ولا يشبه قول الإنس ولا قول الجن، من غير الممكن أن يكون مصدره من الأرض! ولا أدل على ذلك من عبارة الوليد بن المغيرة - وحيرته – في وصف القرآن عندما قال: "وماذا أقول؟ ما فيكم رجل أعلم بالشعر، لا برجزه، ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله لقد سمعت كلاما ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، وإن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو ولا يعلى عليه."[1]

لقد تحداهم القرآن بأن يأتوا بشيء يسير من مثله، فعجز القوم و" لم يذكر التاريخ أن أحدا قد أجاب على هذا التحدي، وبهذا يمكن أن نستخلص أنه قد ظل دون تعقيب."[2]

إن الإعجاز اللغوي للقرآن قد أفحم فعلاً أئمة البيان في ذلك العصر. لكن أول جوانب الإعجاز التي أُدركت لم تكن آخرها، ويجانب الصواب من يحصر إعجاز القرآن في النظم والبلاغة والبيان، وبعض أخبار الغيب، لقد تراجع البيان في عصرنا و تراجع الاحتفاء بالأدب عن الصدارة، وتصدّر العلم اهتمام العالم، فهل تراجع إعجاز القرآن؟..كلا

وإن تعجب، فعجب تراجعُ البيان وتقدم إعجاز القرآن، فما من ناحية يبرز فيها عصر ويتفوق إلا ويجد كلام الله إلى القمة أسبق!

كيف يوفق كتاب بين نزوله نجوما موزعة على ثلاث وعشرين سنة حسب الحوادث والأيام والنوازل والأحوال، ثم يكون محكم البناء كالجملة الواحدة؟ عصيّا على الاختراق، مذهلا في آياته وجمله قبل سوره، حتى لكأن آيات القرآن الكريم أعضاء لجسد واحد، ولقد لاحظ بعض العلماء هذه الظاهرة العجيبة التي

---

١ انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م ، ج١، ص ٢٥٦-٢٥٧ بتصرف يسير في اللفظ.

٢ الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٦م ، ص١٨٩.

يتميز بها القرآن فسما أحدهم " الوحدة الموضوعية " وسماها الثاني " الوحدة الكمية " وسماها الثالث " الوحدة البنائية " .[1]

والمنهج الذي يجزّئ القرآن، ويقطع الآيات عن سياقها، ولا يستوعب أحوال نزولها، لا يقدر الوجوه الجديدة للإعجاز حق قدرها، ولا يبلغ عمقها، لذا كان لمنهج التفسير الموضوعي الدور الأساس في بيان كثير من أوجه الإعجاز لهذا الكتاب الإلهي الخالد بما يحمل من روح المنهج التركيبي الجامع.

فحين يقف العلماء متضرعين خاشعين أمام كتاب نزل منذ ما يزيد عن أربعة عشر قرنا، مفرقا على الحوادث والأيام على ثلاثة وعشرين سنة، وفي بيئة صحراوية بدوية، فيتلقون عنه الإجابات الشافية عن كل مستجد وفي كل مكان وزمان، ومهما كانت البيئة معقدة في جوانبها الاجتماعية والأخلاقية والعلمية - علما أن بعض الدساتير تصبح لا قيمة لها بعد ثلاثين عاما أو أقل – فماذا يعني هذا غير أن القرآن كلام الله؟!

أي كتاب هذا الذي يجيب عن استفهامات وقضايا ومشاكل لم تكن قد عرفت زمن نزوله ولم يكن لأحد أن يتخيل أنها ستعرف في يوم من الأيام!

إن روعة القرآن تتخطى كل حدود للمكان أو الزمان وتسمو لتنفصل تماما عن "عبقرية الإنسان التي تحمل بالضرورة طابع الأرض، ليخضع كل شيء لقانون المكان والزمان، بينما يتخطى القرآن دائما نطاق هذا القانون، وما كان لكتاب بهذا السمو أن يتصور في حدود الأبعاد الضيقة للعبقرية الإنسانية، ومن المقطوع به أنه لو أتيح لأحد الناس أن يقرأ [القرآن] قراءة واعية يدرك خلالها رحابة موضوعه ، فلن يمكنه أن يتصور الذات المحمدية إلا مجرّد واسطة لعلم غيبي مطلق. "[2]

---

١ هؤلاء على الترتيب هم: الدكتور محمد أحمد حجازي، الأستاذ مالك بن نبي، الدكتور طه جابر العلواني.

٢ الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، مرجع سابق، ص ١٩٦.

والقرآن الكريم في رحابة موضوعاته وتنوعها شيء فريد "فهو يبدأ حديثه من (ذرة الوجود المستودعة باطن الصخر والمستقرة في أعماق البحر)[1] إلى (النجم الذي يسبح في فلكه نحو مستقره المعلوم)[2]، وهو يتقصى أبعد الجوانب المظلمة في القلب الإنساني، فيتغلغل في نفس المؤمن والكافر بنظرة تلمس أدق الانفعالات في هذه النفس. وهو يتجه نحو ماضي الإنسانية البعيد ونحو مستقبلها، كما يعلمها واجبات الحياة، وهو يرسم لوحة أخاذة لمشهد الحضارات المتتابعة، ثم يدعونا إلى أن نتأمله لنفيد من عواقبه عظة واعتبارا "[3] وأمام هذه العظمة القرآنية وقف الفيلسوف الكبير توماس كارليل مندهشا ولم يتمالك نفسه " بل انبعثت من أعماقه صرخة إعجاب بالقرآن فقال: "هذا صدى متفجر من قلب الكون كله" وفي هذه الصرخة الفلسفية نجد أكثر من فكرة جافة لمؤرخ، نحد بعض ما يشبه الاعتراف التلقائي لضمير إنساني سام بهت أمام الظاهرة القرآنية." [4]

وما يقال في تنوع الموضوعات القرآنية وسعتها يقال في انسجامها ووحدتها، (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا).[5]

حتى إن القرآن ليبدو كله كالجملة الواحدة ويكاد المرء يعجز عن التصديق بأن كتابا محكما هذا الإحكام نزل نجوما ولم ينزل نجما واحدا! أو جملة واحدة وما أصدق ما عبر به الشيخ محمد عبد الله دراز عن هذا المعنى حين قال " اعمد إلى سورة من تلك السور التي تتناول أكثر من معنى واحد وما أكثرها في القرآن، فهي جمهرته، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة.. وأنا لك زعيم بأنك لن تجد البتة في نظام معانيها ومبانيها ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في

---

١ يشير المؤلف بذلك إلى قوله تعالى (يا بني إنه إن تك مثقال حبة من خردل في السماوات أو في الأرض يأت بها الله إن الله لطيف خبير) لقمان، ١٦ .

٢ يشير إلى قوله تعالى (وكل في فلك يسبحون) يس، ٤٠ .

٣ المرجع السابق ، ص١٩٥ .

٤ المرجع نفسه ، ص ١٩٥ -١٩٦ .

٥ النساء ، ٨٢ .

نجم واحد أم في نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوما." [1]

فالقرآن إذا نظرنا إليه هذه النظرة الكلية التي تلاحظ ترابط أعظائه في جسمه الواحد نجد أنه "يتسع حتى يصبح كونا يعادل الكون كله، بل يستوعبه ويضمه تحت جناحيه، ويدق حتى تراه كأنه كلمة واحدة لكنها عين جارية لا تتوقف ولا تغيض ولا تغور ولا تنضب في المعاني التي تشتمل عليها، والصور الرائعة المثيرة التي ترسمها في ذهن السامع، والآثار المهمة التي تتركها في نفسه".[2]

هكذا يظهر لنا كيف لا تزيد الأيام المتطاولة القرآن إلا تساميا وبريقا ولا تزيد مناوئيه إلا عجزا وإذلالا، فوحدة البناء رغم التفرق في النزول، والقدرة على العطاء رغم الإيغال في القدم وجوه جديدة للإعجاز تدل على أن هذا القرآن كلام الرحمان.

المطلب السادس: تفعيل قضايا في علوم القرآن وتصحيح بعض القواعد العلمية

هذه المسألة جزء من أهمية " المنهج الموضوعي في التفسير " باعتباره مثريا للمكتبة القرآنية بما يفعِّله ويلحّ عليه من أدواتِ وقواعدِ التفسير.

١ النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن الكريم ، محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، القاهرة ، ط١٠، ٢٠٠٨م، ص ١٨٧ .

٢ الوحدة البنائية للقرآن المجيد ، طه جابر العلواني ، مرجع سابق، ص٤٨ .

ومن ذلك، تأكيده على تفسير القرآن بالقرآن، بل إن أحد كبار أساتذة التفسير الموضوعي في الوقت الراهن يرى أن التفسير الموضوعي "ليس سوى تفسير القرآن بالقرآن."[1]

والحق أن منهج تفسير القرآن بالقرآن، هو أوثق وأحسن مناهج التفسير، إذ ليس أحق بتفسير كلام الله وبيان مراده من كلام الله نفسه، وطبيعة القرآن الكريم أنه يصدق بعضه بضا، ويفسر بعضه بعضا، فيسأل القرآن عن نفسه قبل أن يسأل عنه غيره، فإنه يفصّل ما أجمل، ويخصّص ما أطلق، ويبيِّن ما أبهم..الخ.

وهذا المنهج هو ما سنَّه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فسر لفظة الظلم الواقعة في الآية الثانية والثمانين من سورة الأنعام بالآية الثالثة عشر من سورة لقمان، وحين فسّر مفاتح الغيب في قوله تعالى:(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو)الآية [2]بقوله تعلى : (إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث)الآية.[3]

ويتأكد هذه السنة في منهج التفسير الموضوعي الذي يجمع عناصر الموضوع الواحد فيُظهِر التوافق والترابط بين آيات القرآن وموضوعاته، في الوقت الذي يبتعد المنهج التحليلي في كثير من الأحيان عن روح هذا المنهج ويستعيض عنه بالاستطرادات اللغوية أو الفقهية أو الكلامية.

ومن القواعد التي تحتل مركز الثقل في التفسير الموضوعي اعتبار السياقات العامة والخاصة، اللغوية والتاريخية، حتى لا يُفهم القرآن على غير وجهه ولا يحمل على غير مقصوده ولا يُنزَّل على غير مناطه.

---

١ أنظر : خواطر حول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، الدكتور مصطفى مسلم ، مقال على شبكة الإنترنت (تاريخ الدخول: ١٧ مارس ٢٠٠٨م)، وهذا الكلام فيه شيء من عدم الدقة، لأن المنهج الموضوعي في التفسير أشمل وأعمق من تفسير القرآن بالقرآن، الذي يعد من طرق التفسير الموضوعي بلا ريب.

٢ الأنعام ، ٥٩ .

٣ لقمان ، ٣٤ .

وكذا فإن المنهج الموضوعي يفعِّل علم أسباب النزول، ويستفيد من تاريخ النزول وأحواله، فالقرآن نزل مفرّقا على ثلاثة وعشرين سنة، في أحوال شديدة التباين، منه ما نزل أولا ومنه ما نزل آخرا، ومنه ما نزل في الحضر ومنه ما نزل في السفر، منه ما نزل في السلم ومنه ما نزل في الحرب، منه ما نزل في حق المؤمنين ومنه ما نزل في حق اليهود والنصارى والمشركين..الخ، والعلم بذلك أكثر من ضروري بالنسبة للمفسر الذي يعتمد المنهج الموضوعي، وإن كان مطلوبا لكل مفسر، حتى يحيط بالفهم الدقيق، ويتمكن من التنسيق الوثيق، بين معاني الآيات المختلفة في الموضوع الواحد، وحتى يتجنب الوقوع فيما يقع فيه من يجزِّؤون القرآن ويفصلون بين مكوناته، فيُعمِلون بعضه ويردُّون بعضا، ويتخيرون منه ما يشتهون، وينتقون ما تهوى أنفسهم، أو يشتطّون في القول بالنسخ إذا رأوا الآيات تخالف ماذهبوا إليه وتعصبوا له، حتى قال بعضهم إن آية واحدة من القرآن نسخت مائة وعشرين آية ؟! وهي آية السيف ، ثم اختلفوا ما آية السيف هذه؟![1]

وهذا من آفات النظر الجزئي المتعجل لموضوعات القرآن وأحكامه، والذي غالبا ما كان سببا في زيغ كثير من الفرق التي جعلت القرآن تابعا لا متبوعا وفرعا لا أصلا، كما قال الدكتور عبد الستار ".. للقرآن أصوله الجامعة وقواعده الحاكمة، التي لا تعلم إلا بالاستقراء الكلي للألفاظ والدلالات، لتصبح حكما في تقرير القضايا. لكن كثيرا من الفرق نظروا في القرآن نظرة مقلوبة، فبدلا من البحث عن أصوله ليتحاكموا إليها، نظر كل فريق فيه بحثا عما يؤيد مذهبه الذي اعتنقه عن هوى، أو عن طريق نظرة جزئية عجلى تجعل من الآية الواحدة أصلا ينزل عليه ما عداه، بلا استقراء لموقف القرآن الكلي من الموضوع أو

١ قال ابن سلامة إن آية السيف نسخت مائة وأربعة وعشرين آية ثم صار آخرها ناسخا لأولها.. وقال أبو جعفر النحاس إنها نسخت مائة وثلاثة وعشرين موضعا في القرآن؟؟ ينظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله أبو القاسم ابن سلامة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ص٥١، والناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، مطبعة الأنوار المحمدية، مصر، ص٢٤٩.

تؤخذ الآية الواحدة منقطعة عن معاني القرآن.. كما حدث من الخوارج والشيعة والمعتزلة وغلاة الصوفية إلى القادينية والبهائية.."[1]

ومن أمثلة تصحيح التفسير الموضوعي لبعض القواعد العلمية في التفسير "القاعدة التي أوردها كثير من المفسرين، قال الإمام السيوطي:أخرج بن أبي حاتم وغيره عن أبي ابن كعب - رضي الله عنه – قال: "كل شيء في القرآن من "الرياح" فهي رحمة، وكل شيء فيه من "الريح" فهو العذاب .[2]

و من العجيب أن يعود الإمام السيوطي فيضع هذا في "قاعدة كلية" أخرى فيقول:.. ومن ذلك الريح ذكرت مجموعة ومفردة، فحيث ذكرت في سياق الرحمة جمعت، وفي سياق العذاب أفردت. ثم ذكر الأثر السابق، ثم أخذ يلتمس حكمة ذلك ويعلله إلى أن يقول: وقد خرج عن هذه القاعدة قوله تعالى:(وجرينا بهم بريح طيبة)[3]، وعلى ذلك جرى قوله تعالى: (إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره)[4]، وقال ابن المنيّر: إنه على القاعدة لأن سكون الريح عذاب وشدة على أصحاب السفن.

علّق الشيخ فتح الله سعيد بالقول: "أظن – والله أعلم – أن سبب ذلك هو عدم جمع الآيات كلها والنظر فيها مجتمعة قبل تقعيد القاعدة وحينئذ نقول بالقاعدة، أو نعدل عنها، أو نعدّلها وهذه وظيفة التفسير الموضوعي، وإحدى فوائده الجليلة. وبيان ذلك أن "الريح" وردت في القرآن مفردة تسع عشرة مرة، منها سبع في الخير والرحمة، أي أكثر من ثلثها فكيف تؤسس قاعدة على مثل هذا الاستثناء

---

١ المدخل إلى التفسير الموضوعي ، عبد الستار فتح الله سعيد ، ص ٥٢ .

٢ الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفجر للتراث،١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م ، ج٢، ص٤٣٥.

٣ يونس ، ٢٢ .

٤ الشورى ،٣٣ .

[الكثير]؟ وعلى ذلك تصحح القاعدة هكذا: إذا جمعت "الرياح" في القرآن فهي في الرحمة وإذا أفردت استعملت في الرحمة والعذاب، والأخير الأكثر." [1]

من هنا وحتى تحصل فائدة التقعيد الصحيح ينبغي أن يقوم على منهج التفسير الموضوعي في الاستقراء التام والنظر الشامل واستيعاب ألفاظ ومصطلحات القرآن الواردة في موضوع ما - كلها - وعدم متابعة السابقين في ذلك إلا بعد التحري والتحرير والفحص البصير، فالاستقراء التام من شروط التفسير الموضوعي، ويمكن على ضوئه إعادة النظر في كثير من القواعد كقولهم: كل ما القرآن من ذكر:

- الأسف: معناه الحزن، "إلا فلما آسفونا"[2] فمعناه أغضبونا.

- البر والبحر: فالمراد بالبحر الماء، والمراد بالبر التراب اليابس، إلا "ظهر الفساد في البر والبحر"[3] فالمراد به البرية والعمران.

- حسرة: فهي الندامة، إلا "ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم"[4] فمعناه الحزن فكل ما نقله السيوطي مما أوردت منه هذه الأمثلة وغيرها كثير[5] عن ابن فارس وغيره في باب الوجوه والنظائر مبني على الاستقراء.

لذا يمكن أن يراجعه التفسير الموضوعي على ضوء الاستقراء التام للآيات القرآنية فيؤكد منه ويعدل وينفي، على حسب ما يؤدي إليه الإحصاء والسبر والتقسيم.

١ المدخل إلى التفسير الموضوعي ،عبد الستار فتح الله سعيد، ص٥٤-٥٥.
٢ الزخرف، ٥٥.
٣ الروم، ٤١.
٤ آل عمران، ١٥٦.
٥ يراجع الإتقان في علوم القرآن، الإمام السيوطي، ص ٤٣١-٤٣٨ .

خاتمة

ختاما فإن هذه الجولة التي حاولت من خلالها التعريج على الاتجاهات المختلفة في تصور التفسير الموضوعي والترجيح فيما بينها، قد بينت أننا أمام أكثر من نوع واتجاه، بعضها يركز على التحام الخطاب بالواقع، وبعضها يركز على المأثور ويدور مع النصوص، اتجاهات ترى مستقبل التفسير الموضوعي في موضوعات القرآن الكريم، وأخرى ترى مستقبله في الكشف عن نظام السور وسر ترابطها وترابط آياتها.

وظهر لنا بأن من الباحثين من يجمع بين أنواع التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ومنهم من يتخير بينها ويفصل ويرجح، وإن كنا قد خلصنا إلى أن الأنواع الثلاثة للتفسير الموصوعي مختلفة في الأسس المنهجية التي قامت عليها، وهي في الجملة: تفسير ألفاظ القرآن، تفسير سور القرآن، وتفسير موضوعات القرآن.

وقد تبين لنا التناغم الحاصل بين منهج التفسير الموضوعي، وطبيعة القرآن من حيث هو كتاب هداية، إذ يسعى أصحابه على اختلاف أطيافهم إلى رد الشبهات الكلية وتقديم البدائل الشرعية.

كما أظهرت الدراسة بصورة مفصلة قدرة التفسير الموضوعي بأنواعه على بناء مختلف جوانب الثقافة الإسلامية المعاصرة، وإظهار إعجاز القرآن الكريم، وبسط هداياته على واقع حياة الناس.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .
٢- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، دار الفجر للتراث،1427هـ، 2006م .
٣- البداية في التفسير الموضوعي ، عبد الحي الفرماوي، مطبعة الحضارة العربية، ط2، 1977م .
٤- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، 2006م.
٥- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، الطبعة الرابعة،1416هـ - 1996م.
٦- تفسير القرآن الكريم مصادره واتجاهاته، عبد الله بن الزبير، نشر رابطة العالم الإسلامي ، السعودية.
٧- التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار النفائس، الأردن، الطبعة الأولى، 1979م .
٨- التفسير الموضوعي ومنهج البحث فيه، خليل زياد الدغامين، دار عمار، الأردن، ط1، 2007م.
٩- التفسير الموضوعي للقرآن في كفتي ميزان، عبد الجليل عبد الرحيم، سلسلة التراث والوحي في الإسلام، الأردن ج1، ط1، 1991م.
١٠-خواطر حول التفسير الموضوعي للقرآن الكريم ، الدكتور مصطفى مسلم ، مقال على شبكة الإنترنت (تاريخ الدخول: 17 مارس 2008م) .
١١-رسالة المسجد (مجلة)، بحث: المناهج المعاصرة في تفسير القرآن الكريم وتأويله، عبد الرحمان الحاج إبراهيم، سوريا، العدد الأول، جمادى الثانية،2003م.
١٢-روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، العلامة أبي الفضل شهاب الدين الألوسي البغدادي، دار الفكر ، بيروت، 1403هـ -1983م.
١٣-السيرة النبوية، ابن هشام، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الرابعة، 2004م .
١٤-صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة المكنز الإسلامي مصر القاهرة.
١٥-الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة السادسة، 2006م .

١٦-كيف نتعامل مع القرآن العظيم، يوسف القرضاوي، دار الشروق، الطبعة الخامسة، 2006م.
١٧-مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الرابعة 2005م.
١٨-مجموع الفتاوى، أبو العباس أحمد عبد الحليم بن تيمية، طبعة الرياض الرياض ، ج13.
١٩-المدخل إلى التفسير الموضوعي، عبد الستار فتح الله سعيد،دار التوزيع والنشر الإسلامية ، الطبعة الثانية ،1411هـ،1991.
٢٠-المدرسة القرآنية، السيد باقر الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان.
٢١-مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي ، مالك ابن نبي ، دار الفكر ، دمشق .
٢٢-الناسخ والمنسوخ، هبة الله أبو القاسم ابن سلامة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
٢٣-الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، مطبعة الأنوار المحمدية.
٢٤-النبأ العظيم : نظرات جديدة في القرآن الكريم ، محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، القاهرة ، ط10، 2008م .
٢٥-الوحدة البنائية للقرآن المجيد ، طه جابر العلواني، مكتبة الشروق الدولية ، ط1، مارس 2006م .
٢٦-الوحدة الموضوعية في القرآن ، محمد محمود حجازي، مكتبة دار التفسير،الزقازيق، الطبعة الثانية ، 2004م.
٢٧-الوسطية : المفهوم والمصطلح ، عصام أحمد البشير ، دار المأمون للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط1 ، 2008م.